



"عندما تصبح الشبابيك هي السماء.
والأبواب هي السماء.
والسماء هي العري والعراء.
والأرض هي الجوع والخواء.
لا يبقى للدموع مجرى يسقيه.
ولا يكفي الجرح أن تبكيه.
فالشعب سئم الموت والرثاء.
ومل النوح والعزاء.

قد آن للفعل أن يمسك الزمام، وللحق أن يخوض المعركة الفصل لصرع الفصام.
كان الطفل وسط الخيمة التي تفجرت أرضاها عيون ماء تحت هطل المطر الغزير.
وكانت أمه الراكضة وسط الماء مشغولة عنه بحمل طفلتها الرضيعة التي لا تقدر على المشي؛ لكنّها لما رأته، فجأة ، يتخيّط
بين الأمطار والمياه، وسمعته يصرخ "يا يما هون في بحر كبير. من وين أجا ها البحر يا يما؟

البحر عم يهجم علينا.

"البحر حيأخذنا..... يا يما... تعالى يما خديني من المي"

ركضت كمجونة في الماء الغزير لتمسك بيد طفلها، قبل أن تجرفه سيول الأمطار.

واراحت تصارع الماء والطين والرياح والصواعق التي تضرب الخيام؛ لكي تصل إليه وسط المياه التي كانت تغطيه حتى فخذيه .

وعندما وصلته شدّ جسمه عليها مرتعداً، وصار يصرخ بحنون "نزلبني على ضياعتنا في الجسر.

هناك ما في بحر بيأخذنا. هون في بحر كبير بدو يأخذنا"

هذا الحدث ليس تخيلاً... بل حادثة من الواقع الحقيقي. وهؤلاء بشر حقيقيون من أبناء سوريا؛ اضطرتهم الحرب لأن يكونوا لاجئين في مخيم في شمال سوريا.. وذلك لم يكن بحرا.

كان فيضاناً حقيقياً أكثر طغياناً من البحر، وفي نظر الطفل كان خضماً رهيباً.

وهؤلاء، ليسوا مجرمين، لكي تصيبهم اللعنة والسخطة فيضيغوا في المأساة، وليسوا فاسدين طغاة نشطوا في إفساد الأرض وعقوا القوانين الكبرى لتعاقبهم

الطبيعة وتغضب منهم وعليهم؛ لكن، لأنّ المستبدین في سوريا مارسوا بحقهم كل أنواع الترهيب والتروع والإبادة؛ فهربوا بحثاً عن ملجاً في مخيم على حدود الدول الأخرى.

ولأن أصحاب القرار القائمين على مخيمات الدول المتحدة،

لا يبالون كثيراً بأرواح هؤلاء اللاجئين؛ فهم، بحسب اعتقادهم وفعلهم، مجرد لاجئين، وتكتيفهم خيمة ولقيمة عيش.

ويمكن تأجيل إصلاح الخيمة وإعداد المخيم لفصل الشتاء شهراً؛ فعناصر السلامة تليق بالحضر وسكان العمارات والمدن أكثر من سكان الوبر والخيام والمشردين، حتى وإن كانوا طارئن على الخيام والشتات والنزوح؛ بعد أن كانوا أبناء الحضر. فلا يعني القائمين على الأمر إلا الصورة الجميلة الظاهرة للعالم، لا الحقيقة مهما كانت ملحة؛ لأنها فاضحة. ومع ذلك فشل غباؤهم في تجميل الصورة.... ورأى العام غرق المخيم؛ لكنه اكتفى بالبكاء.

وبعد أيام معدودات، في مخيم سوري آخر بعيد عن ذلك المخيم الشمالي في أقصى الجنوب خارج البلد.. حملت الأم اللاجئة طفلها بين يديها المرتعشتين. كان كقطعة جليد متيسسة. مات أمام عينيها وفي حضتها بسبب البرد. حاولت أن تدفعه، لكن جسدها كان أيضاً بارداً، فلم يسعفها لحماية ولديها. حتى حبها الكبير لم يكفل ليعيش ويصمد في مخيم البرد شديد. فليس معهم، هناك، ما يقاومون به البرد إلا الدعاء والنداء والصمود و تلاصق أحسادهم، وحركاتها لتحمية الدماء انتقاء الانهيار تحت البرد وفي صقيع الصحراء.. هنا لا بحر مخيف. كثير من الريح والبرد ورمال الصحراء، وكثير من انعدام الدفء والنار... فلا موقد ولا حطب حتى الملابس والأغطية لا تكفي. وعلى صدر الأم توفي الصغير - وتوفي معه في حضن أمهاه أخرىات اثنان غيره. ثم توفي طفل ثالث، بعد يومين.

نعم. في الشتات تتسع دائرة هدر الحقوق.

والظلم يشتد. فلا مساءلة. لا رحمة. وأحساس الشفقة مؤقتة وعابرة. وفي كل المخيمات الممتدة من الشمال إلى الجنوب إلى الشرق، تخلع الإدارة عن نفسها كل تهمة أو تقصير وتنفي مسؤوليتها عن الموت والعناد والبؤس... ويصبح المريض أو الميت قهراً وجوعاً وبرداً وغرقاً هو المتهم وهو الضحية التي يكم فم المطالبة بحقها.

لكن الشتات ليس في الخارج فقط؛ فهو على امتداد الوطن كله. نزوح وخوف وعراء. وفي كل يوم دمار وهلاك لا يتوقفان.. غارة حربية تشنها طائرة عسكرية نظامية على الأطفال والنساء والرجال في حي يعيش الناس. ثم على المدارس والملاجئ

والمزارع وعلى معصرة للزيتون مكتظة بالزوارعين؛ فتلقى القنابل العنقودية والفراغية والفوسفورية، وقتل الآمنين وحرقهم وأرجمهم.

وعلى مدار اليوم يموت الأطفال أمام أعين أهليهم...

ويموت الأهل أمام أعين أولادهم... والعالم صامت يتلاطف عن أداء واجبه الأخلاقي، ويتردد في تقديم الغوث والإغاثة؛ لأن هؤلاء الأطفال ليسوا أطفالاً يستحقون الدفاع عنهم. أو لأنّ هؤلاء البشر ليسوا بشراً، يستحقون كرامة الحياة وشرعية الوجود.

العالم كله لايبيالي، وتعمى أبصاره عن صورة مأساتهم في كل مشاهدها. ولا تتبوأ صورة طوابير الخبز التي يصطف فيها الأطفال في أدوارهم ليشتروا الخبز، ويتحولوا إلى أهداف للطائرات الحربية، تقصفهم وتحولهم إلى أشلاء مهما في أولوياتهم ونجدتهم

نعم هي خيمة وشتات ونزوح وجوع وبرد، ووطن يخنقه موت مريع وإبادة مخفية، وبشر يحاولون أن يثبتوا ويصدوا أمام البرد الشديد والريح العاتية، والجوع الكافر، يقاومون الحرائق والقصف والتفجير.

ونعم أيضاً أنّ العالم، كله، لا يعنيه من ذلك إلا خوفه على إسرائيل وعلى مصالحه الاستغلالية، قد عجز عن تضمير الضمير الذي امتلأ بأثخن الجراح؟

ألا يحرك الضمير والفعل كل هذا الدمار والإبادة والترشيد وتفتیت الوطن وتهشيمه؟

أمازال هناك متسع للفرجة والتأمل وتأجيل الأفعال ألم يحن الوقت للكف عن الصمت والانقسام والصراع على الزعامات والمصالح والمقامات.

الأمر أصبح استحقاقاً تاريخياً وأخلاقياً لا مفر منه.

رابطة أدباء الشام

المصادر: